مكانة الشريف الرضى بين شعراء المديح

محمد جواد إسماعيل غانمى*

على سپهيار**

الملخص

يعجز الإنسان مهما حرص واجتهد فى دراسته أن يوفى الشريف الرضى بعض حقوقه. لأنّ الشريف الرضى إلى جانب العصر الذى عاش فيه – عصر زاخرٌ بالعلم، والمعرفة، والفكر النّير– يتجلى بعدة ميزات إلى جانب شخصيته الشعرية.

أردنا من خلال هذا المقال أن ننصف الرضى وعبقريته، التى انشغل عنها القدامى بالمتنبى وشعره، ثم لم يلبثوا أن طلع عليهم أبوالعلاء المعرى، فانشغلوا به إلى جانب انشغالهم بأبى الطيب. لهذا حاولنا أن نبحث عن مكانة الشريف الرضى بين شعراء المديح من خلال هذه الأسطر القليلة.فرأينا أنّ الشريف يحتل مكانه بارزة إذا ما قورن بشعراء المديح من معاصريه أو غيرهم. وأن المدائح عنده ذوات خلفية تغاير خلفيات المدح التى نعرفها لدى غيره من الشعراء، أى أنها لا تنطلق من رغبة فى كسب أو ملق أو نفع معين.

الكلمات‌الدليلية: المدح، الرضى، مكانة، الشعر، الأغراض، تكسب.

*. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى آبادان.

**. عضو هيئة التدريس بجامعة آزاد الإسلامية فى آبادان.

تاريخ الوصول: ١٣٨٩/٢/٢٥هـ . ش تاريخ القبول: ١٣٨٩/٦/٢٧هـ . ش

المقدمة

دراسة الشريف الرضى من أروع الدراسات، لأنها تغنى العقل قبل الفكر، وتفرض على دارسه أن يتروّى كثيراً قبل القيام بعمله، لأنّ الشريف الرضى محيط من المعرفة الإنسانية، تتصل معرفته، بالدوحه المحمدية الشريفة.

ففى دراسة الشريف الرضى، نحن نواجه رجلاً من كرام الرجال، وشاعراً من أغنى من أنتجتهم الأمة العربية الإسلامية على امتداد تأريخها. ومن الواجب على الدارسين والباحثين، أن ينصفوا الرضى وشاعريته التى انشغلوا عنها بالآخرين.

المدح عند الشريف الرضى

المدح عند العرب فن جميل من الفنون الشعرية، ازدهر به ديوان الشعر العربى، وأجمل أنواع المدح هى تلك المدائح التى، يتناول فيها الشاعر القيم الروحية والخُلقية والإنسانية فى الممدوح، ولكن نجد العديد من الشعراء قد خرجوا عن هذه الأطر، فركّزوا مدحهم لخدمة الأطماع والميول، وقد بالغوا فيه، حيث أصبح تكسباً، فأغرقته المادة، فى أمواجها. لا شكّ أنّ الشعراء لم يكونوا كلّهم على هذا المنوال، فقد تجنب بعضهم هذا الصنيع، ولذلک حفظوا لشعرهم، الخلود والسمو بعد أن ارتفعوا به إلى ما يليق؛ وأبوا الاستجداء والاستعطاف والتملق على أعتاب السلاطين والأمراء.

وكان الشريف الرضى على رأس هذه الطبقة من الشعراء فمدائحه ليست كسائر المدائح، لأنّ الشريف لم يكن يتكسب بشعره، كما فعل ذلک بعض الشعراء الذين كانوا يبيعون قصائدهم، وبالتالى كراماتهم فى بغداد؛ وإنّما كانت مدائحه كما يذكر زكى مبارک: «شاهداً على اشتباكه فى المعارک السياسية، التى كانت تثور فى فارس وفى العراق، فأكثر ممدوحيه كانوا يتذوقون الشعر والأدب والبلاغة، وأكثرهم كانوا من الفتيان الأبطال، الذين يعشقون جليل الصفات، ولعلّ الشريف أنس بهم فمدحهم بغرر معانيه.» (مبارک، ١٩٨٨م، ج١: ٦٣)

إنّ مدائح الشريف الرضى تبلغ ثلث ديوانه، وقد توزعت بين أسرته (والده وشقيقه

وخاله) وبعض الخلفاء العباسيين، وملوک بنى بويه ووزرائهم، إضافة إلى شيوخه وأصدقائه.

وأما حرص الشريف الرضى على مدح بعض أصحاب أو أرباب السلطة، فلم يكن رغبة فى منفعة رخيصة بخسة، وإنّما كان هدفاً إلى خدمة وطنه الذى جار عليه الزمن آنذاک، لأنّ الرضى خلال حياته شهد صراعات سياسية كثيرة. وكان خلفاء بنى العباس فى عهده لايملكون من أمرهم ضراً ولا نفعاً، وكان يكفيهم من الخلافة الاسم.لذلک كان يخص بالمدح من يرى فيه القدرة على إنصاف العراق، ولو لم يكن الأمر كذلک، لكان فى غنى عن هذا المديح، لأنّ سلطته الروحية والمكانة المرموقة التى يتحلى بها هو وأبوه بين الناس، أعطته مكانة عالية، حرص عليها حتى أصحاب الجاه فى القرن الرابع الهجرى. فالشريف كان أمير الحج، ونقيب الطالبين، ووالى ديوان المظالم. (الأمينى، ۱۳۶۶ش، ج۴: ۱۸۲؛ وبروكلمان، لاتا، ج۲: ۶۲) وهى مناصب تغنيه لاشک عن المديح بغية الكسب المادى، فقد كان أصحاب الجاه ومقالد الحكم، بحاجة إلى أبى أحمد الموسوى، وإلى وريثه فى المناصب وابنه، الشريف الرضى. وذلک كان بسبب نفوذ هذين الشخصين ومكانتهما العالية بين القبائل العربية، التى كانت تسدّ الطريق إلى البيت الحرام، وتشهد كتب التاريخ أن أهل العراق وأهل فارس وأهل خراسان، انصرفوا عن الحج أعواماً بسبب الخوف من التعديات، فكان وجود الموسوى وابنه من بعده، كفيلاً بوضع حدٍّ لهذا الوضع المضطرب، إذ كان لهما نفوذ بالغ بين القبائل وسلطتهم الروحية كانوا ينالون منها من القبائل ما تعجز عنه السيوف.

وفى مخاطبة الشريف القادر دليل واضحٌ على أن مدحه لأولى الأمر لم يكن تكسبياً، فهو يرى نفسه أحق الناس بالخلافة، وأجدرهم بها.

عطفــاً أميــر المؤمنيــن فإننا ... فــى دوحــة العليــاء لانتفرق
مــا بيننا يــوم الفخــار تفاوت ... أبــداً كلانا فــى المعالى معرق
إلاّ الخلافــة ميزتــک فإننــى ... أنــا عاطل عنها وأنــت مطوّق

(الشريف الرضى، ۱۴۰۶م، ج۲: ۴۲)

القصيدة المدحية عند الشريف الرضی، متعددة الأغراض، إذ يرى فيها بالإضافة إلى المديح؛ الوصف، والفخر، والحكمة والهجاء والنسيب.

وأروع قصائد المديح فی ديوانه، تلك التی تتناول شخصية والده، فقلما تمرُّ مناسبة أو عيد، إلا ومدحه بقصيدة من عيون الشعر، لأنه كان يرى أباه المثل الأعلى، والذی تعلو مكانته، مكانة الخلفاء، بل يعتقد أن أباه أولى منهم بالملک والسلطان، وقدمدحه بأكثر من ثلاثين قصيدة، تعتبر قمة من قمم الشعر التی تربّی الأخلاق وتسمو بالإنسان إلى المعنويات العالية.

وهكذا فإنّ المدائح مع كثرتها فی ديوان الشريف، لكنها ذوات خلفية تختلف مع خلفيات المدح، التی تعرف لدى غيره من الشعراء، أی الشريف لم ينطلق من رغبة فی كسب أو ملقٍ أو نفع معين، بل إن أكثر مدحه يصدر عن قرابة أو صداقة أو مودّة هذا مع إنّ الشريف كانت له صلات ودّية بكبراء زمانه، من خلفاء ووزراء وأدباء، ولكن لم يجد نفسه، مجبوراً كشاعر فی مدح هؤلاء، وذكر فضائلهم ومآثرهم. مع أن العديد من هؤلاء الكبراء قاموا بأعمال جيدة فی ميادين العمران وساحات النضال ونشر المعرفة والثقافة.

المهم أنّ قول الشعر، لم يكن فی سيرة الشريف، بضاعة للتجارة، بل أداة همّ، وموضع شكوى:

بضائع قــول عند غيری ربحها　　وعندی خســراناتها والوضائعُ

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۱: ۶۶۵)

والأصل الثابت فی هذه المواقف المشرفة، تفرد الشاعر بما وهبهُ الله، وعزّة نفسه:

لقد كان لی عن باحة الذلّ مذهبٌ　　ومضطربّ عن جانب الضيم واسعُ

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۱: ۶۶۵)

أما مدائحه فی الملوک والأمراء خاصة، تختلف عن مدائحه فی أسرته، فكما يقول الكاتب عبد اللطيف شرارة، كانت: «تحمل فی ثناياها، ضروباً من الفخر والافتخار، وكانوا يلحظونها على مضض، ويهملون لحاظها تعالياً واستكباراً، مكتفين بالظاهر منها أنّها قيلت فی مدحهم.» (شرارة، ۱۹۹۳م: ۵۵)

ولكن مدائح الرضى التى خص بها الأدباء من الوزراء، تدلّ على إعجاب واحترام كبيرين، يقول عبداللطيف شرارة: «إن مدائح الشريف الموجهة إلى الأدباء من الوزراء، كالصاحب بن عباد، وسابور بن اردشير، وزير بهاء الدولة البويهى تنمّ عن إعجاب أدبى، ومودّةٍ مضمّخةٍ بأرج روحانى، لاتقع على شيءٍ منها فى مدائحه الأخرى، سوى تلك التى خصّ بها قوام الدين وبهاء الدولة، وهذا يدخل فى عداد أصدقائه المخلصين، شأنه شأن أبى أسحاق الصابى. (شرارة، ١٩٩٣م: ١٦٣) وكان ما كتب إليه وهو فى فارس:

وما تلوّم جســمى عــن لقائكمُ	إلاّ وقلبــى إليكم شــيقٌ عجلُ
وكيــف يقعــدُ مشــتاقٌ يحرّكه	إليكم الحافزان الشــوق والأملُ
فــإن نهضتُ فما لى غيركم وطرٌ	وإن قعدتُ فما لى غيركم شغلُ
لوكان لى بدلٌ ما اخترتُ غيركم	فكيف ذلک، وما لى غيركم بدلُ
وكم تعرّض لى الأقــوام قبلَكمُ	يستأذنون على قلبى، فما وصلوا

(الشريف الرضى، ١۴٠۶ق، ج٢: ٢٢٨)

وهكذا هو المدح عند الشريف الرضى، فإنّه يعطى الصداقة أزهى ألوانها وأجمل صورها. وهى هى مع أقاربه وأصدقائه، بحيث يتحول المدح إلى حلية أو زينة، يقدمها الشاعر إلى من يأنس بهم ويرتاح إليهم. وهم بدورهم يأنسون به، وإليه يرتاحون.

وكما يقول الفاخورى: «لم تكن مدائح الشريف للتكسب، إنما كانت عبارة عن اشتباكه فى المعارک السياسية الناشبة فى فارس والعراق، ووسيلة إلى أغراض سياسية، وعنواناً على متابعته لتقلب الأحوال.» (الفاخورى، ١٩٨٧م: ۶۶۵)

مكانة الشريف بين شعراء المديح

يحتل الشريف مكانة بارزة وسامية، إذا ما قورن بشعراء المديح من معاصريه أو غيرهم. لأنّ مدائح الرضى ذوات خلفية، تغاير خلفيات المدح التى نعرفها لدى غيره من الشعراء، أى إنها لاتنطلق من رغبة فى كسب أو ملق أو نفع معين، بل إن معظمها يصدر عن قرابة، أو صداقة أو موّدة. وسبب ذلک، أن الرضى عُرف كشاعر من جهة، وكانت له

من جهة أخرى، صلات متينة بكبراء زمانه، من خلفاء وأمراء ووزراء وأدباء. إذن قول الشعر فی سيرة الشريف لم يكن بضاعة للتجارة، بل أداة همّ وموضع شكوى:

بضائــع قول عند غيــری ربحها　　وعنــدی خســراناتها والوضائعُ

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۱: ۶۶۵)

والأساس فی مواقفه هذه، تفرّده بمواهبه واعتزازه بنفسه:

لقد كان لی عن باحة الذلّ مذهبٌ　　ومضطربّ عن جانب الضيم وواسعُ

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۱: ۶۶۵)

بما أن البحث عن مكانة الشريف بين شعراء المديح، لهذا حاولنا أن نقارن هذا الشاعر بشاعرين شهيرين من العصر العباسی، عُرفا فی جانب كبير من شعريهما بالقصائد المدحية، وهذان الشاعران هما ابن الرومی والمتنبی.

أما ابن الرومی، مع أن المديح يحتّل حيزاً كبيراً فی شعره، ولكن رغم ذلک، فهو لم يأخذ الأهمية التی أخذتها سائر الأغراض فی شعره، وسبب فشله فی هذا الفن، إكثاره بالسؤال فيه من جهة، ولأنّ العصر لم يغدق على المتكسبين من أمثاله، كما فعل العصر الذی سبقه. وعلة أخرى أيضاً كانت سبباً فی عدم موفقيته فی هذا الغرض، وهی الإطالة الممّلة التی لم يعرف الشعر العربی القديم مثيلاً لها. فإذا قارنا الشريف بابن الرومی، فی هذا المجال لرأينا الشريف يمتاز عليه من جوانب عديدة، كما يتفوق عليه تفوقاً صارماً، انطلاقاً من تجنب الرضی من التكسب فی شعره، إلى ابتعاده من التعقيد فی الكلام، وثمة ميزات أخرى.

قلنا أن الرضی عليه الرحمة، ابتعد عن التكسب والطلب فی مدحه، ولم يخضع شعره للدارهم، وهذه الصفة واضحة وجلية فی شعره. فمثلاً الأبيات التی مرت عند مخاطبة القادر خير دليل على ذلک:

عطفــا أمير المؤمنين فإننا　　فی دوحة العلياء لانتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفاوت　　أبداً كلانا فی المعالی معرق
إلاّ الخلافة ميزتک فإننی　　أنا عاطل عنها وأنت مطوّق

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۲: ۴۲)

ولكن إبن الرومى عندما يخاطب ذوى الشأن والسلطان، فمن المضحک المبکى فى مدائح هذا الشاعر الغريب العجيب، إنه يفلق الممدوح وينهكه، بكثرة الشكوى والبكاء على شبابه الذاوى، ليدرّ عطفه عليه، ويثير حنين مشاعره لإغداق كرمه، بأسلوب لايتورع عن استهلاله بالنسيب الذى جرى عليه المحافظون على القالب الشعرى القديم، بما فى ذلک، ذكر الحكم ومجالس اللهو، وذكر حال بؤسه وشدّة فقره التى توجب على الممدوح المبادرة الفورّية لإجزال العطاء.

أثبنى ورفّهنى وأجزل مثوبتى وثابر على إدرار بزّى وواظِبى
أثقــلُ إدلالــى لتحمــلَ ثقلَه بطوع المراضى لابكره المغاضبِ

(ابن الرومى، ۱۹۹۴م، ج۱: ۱۴۲)

فأنت ترى الشاعر، يتلو قصّة، ترشد الممدوح نحو الفضائل المتكسبة، ثوب الحلم البعيد عن الغضب. وانبرى يعرض عللا قصصية، تتعلق بحاله والمشقات التى أعجزته فى أسفاره. وفى هذا النوع من التكسب النافر لدى الخلفاء العباسيين، ضجّ شاعرنا بقصائده غير المقبولة عندهم، فهو حين يراهم لايستجيبون لشروطه المنطقية ـ فى نظره ـ يذهب إلى العتاب والشكوى من إعراض ممدوحه عنه، ويصرّ فى طلب الصفح والعطف لعطاياهم، ويغرق نفسه فى مذلة التصغير لشأنه، كى يحظى بالرأفة والرضا، ضمن أسلوب الصراحة البعيدة عن المواربة حتى يقول:

كأنّک قد أنســيت أنّک سيدٌ له الفضلُ، أو أنسيت أنّى خادمُ

(ابن الرومى، ۱۹۹۴م، ج۱: ۴۲)

ويبقى على حالته تلک، وما فيها من احتقار لنفسه، وتصغير شأنه، حتى يخرج أبياته بغريب الألفاظ مقبولة عند ممدوحيه.

ألک الأمر والسياســة واســمُ المعتفيکُ الصعلوک والقرضوبُ
ثوبــى الــرث والثيــابُ طراءٌ وطعامــى، برغمى المجشــوبُ

(ابن الرومى، ۱۹۹۴م، ج۱: ۲۲۲)

ويضيف إلى ذلک كله لزوم ما لا يلزم من قوانين الصناعة التى فاق بها أهل عصره،

وهذا الأمر لم نره عند الرضى، حتى فى مدائحه للملوک والأمراء، فإن مدائحه فيهم تحمل فى ثناياها ضروباً من الفخر والاعتزاز، وذلک ملحوظ فى أيام يسره وعسره، خلافاً لابن الرومى الذى نلمح عتابه وشدّة إلحاحه، لافقط لحاجة تؤلم بطنه الخاوية، أو قرص جوع أشعرته بدنو أجله. بل نلمح هذا الإذلال والانكسار فى السؤال بشعره فى أيام يسره أيضاً، حيث يخاطب عبيد الله قائلاً:

أتحرمنــى لأنّــى مســتغلٌ وأنّى لستُ كالرزحى السغاب؟

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج١: ١٧٢)

فى الواقع فإنّ ابن الرومى قد غرّد فى هذا الغرض من الشعر خارج سربه، ومن أجل ذلک لم ينجح به، ولا كان غرضاً ناجحاً فى قصائده.

فطريقته فى المدح لم يلتفت فيها إلاّ إلى المال وحده، فأينما حلّ المال، حلّ فيه ابن الرومى وطريقته للوصول إلى النوال، تتعدد مع حالة المقصد الذى يصبوا إليه، مهما كان فإن ابن الرومى يتكيف مع الحال تكيف الماء فى الإناء، والمقصد وراء مديحه هو التكسب ولاغير.

طبعاً من الأمور الطريفة، المضحكة التى لابدّ أن نضيفها إلى مدح ابن الرومى، هى تهجمه على من يمدحه، حين يعرض عنه، ولايثيبه على ما جمّله به من عذب الكلام الذى كساه إياه. يقول فى ذلک:

يا مادحَ القومِ اللئام وطالباً نيلَ الشحاح
ما أنتَ فى زمنِ المديح ولاالهجاء والسماح
فاشغل قريضک بالنسيب وبالفاكهة والمزاح

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج١: ٢١٠)

وقد يتساءل الإنسان، أليس ذلک حقا للشاعر مشروعاً، أو ليست المكافأة هنا دليل التقدير وحسن الظن بكفاءة الشاعر، والإعجاب بقوله وفنه، وهل يفعل أديب اليومَ غير هذ؟!! وأن أشدّ ما يغيظ الفنان والشاعر، أن لا يجد أحدهما صدى استحسان لما يقوله، فيثره ذلک، فيلجأ إلى هجوهم انتقاما لشرف شعره، وكرامة الكلمة والنفس، ولهذا الأمر

اضطر ابن الرومى أكثر من مرة أن يعلن بصدقه وصراحته:

وإذا ما مدحتُ المرءَ يوماً ولم يثب مديحى، وحقُّ الشعر فى الحكم واجبُ
كفانــى هجائيــه قيامــى بمدحــه خطيباً وقولُ الناس لى «أنت كاذب»

(ابن الرومى، ١٩٩٤م، ج١: ٨٨)

فللشعر حق واجب فى الحكم، وعلى الآخرين أن يقدروا هذا الحق، ويكافئوا أصحابه، ويثيبوهم، وإلاّ ساءهم ذلک وأحقدُوهم عليهم لسوء فهمهم، وعدم إعطائهم حقهم. طبعاً لايختلط الأمر على القارئ الكريم، فقد يكون عدم إثابة ابن الرومى، لأنه كان يستجدى بشعره ويذلّل نفسه، حيث قد خرج عن الإطار المألوف لدى الشعراء عندما يجلسون على أبواب الملوک والأمراء، مما كان يثير حفيظته ويزيد من حقده ونقمته، وكلّ هذه الأشياء التى ذكرت، لم توجد ولم يألفها الشريف الرضى، لأنه لم يقصد من وراء مديحه سوى إبراز قدرته الشعرية، وحاجته النفسية، هو دائماً يتغنى بمآثره ومآثر أجداده الكرام، ويفخر بنفسه الأبية التى ترفض الخنوع والتذلل لذوى السلطان من خلفاء، أو أمراء، أو وزراء. يقول فى مدحه للملک بهاء الدولة:

فجرّبنى تجدنى ســيفَ عزمٍ يصمّــم غربــه وزِنــادَ راءِ

(الشريف الرضى، ١٤٠٦ق، ج١: ١٦)

فهو يفتخر بنفسه، ويقف له ولا يذلل نفسه، كما كان يفعل ابن الرومى أو غيره من الشعراء.

وأما المتنبى فإن الشريف يتفقُ معه فى مجادلات كثيرة، منها فن المديح الذى زخر به كلاً من ديوان الشاعرين. وقد ذكر حنا الفاخورى فى حديثه عن المدح عند الرضى قائلاً: «إن الشريف الرضى عندما ينتقل إلى ممدوحه يكثر من وصف القتال، والإيقاع بالأعداء، ثم يفخر بنفسه وبفعاله لكى يستميل الممدوح، وهو فى كل ذلک يشبه المتنبى الذى يحاول الشريف أن يقلده فى معانيه، وأساليبه، وصوره من غير أن يبلغ شأوه. فبعيد ما بين اندفاع المتنبى وثورته العاطفية وقوته الجبارة، واندفاع الشريف الذى يمازجه اللين حتى فى أعظم مواقف الشدة.» (الفاخورى، ١٩٨٧م: ٦٧٣)

لاشک أن الرضی قد جاء بعد وفاة المتنبی بمدة وجیزة، وکان المتنبی آنذاک، کما یقال «ملأ الدنیا وشغل الناس» ولاشک أنه کان من روّاد الشعر وأصحاب الرأی والکلمة فی الأدب، وقد سطّر أروع وأعظم البطولات فی میادین الشعر والنزال، ولابدّ أن یتأثر بهذا العملاق سائر الشعراء إذا ما أرادوا أن یتجولوا فی أرجاء الشعر العربی. منهم شاعرنا الشریف الرضی، الذی – کما یذکر حنا الفاخوری – حاول التقرب منه ومجاراته. ولکن رغم ذلک، فإن الرضی تفرّد بعدّة أمور عن المتنبی خاصة فی فن المدیح.

أسلوب المتنبی فی المدح، هو الأسلوب القدیم، الذی یبدأ باستهلال القصیدة بالغزل والوصف، وصف الدیار والمطیة والسّیر، إلی الممدوح حتی یتخلص إلی المدح، ولکن الرضی خالف هذا الأسلوب القدیم فی العدید من جوانبه. فهو کثیراً ما یستهل القصیدة بالفخر والشکوی من الزمن، وقلّما یبدأها بالغزل والوصف وذکر الدیار وما إلی ذلک من الأسالیب المعهودة فی الشعر العربی. طبعاً لابدّ هنا أن نذکر أن هذه الظاهرة – الاستهلال بالفخر والشکوی – وجدت عند المتنبی، أو کانت موجودة، قبل أن یتصل بالحمدانیین، ولکن ما إن اتصل بهم، حتی أخفت شخصیة الممدوح (سیف الدولة) شخصیة الشاعر، لأنه کما سوف نبین کان یراه مثله الأعلی، الذی تتجلی شخصیته فیه.

ومن الأشیاء التی تفرّد فیها الرضی أیضاً وأمتاز بها علی کثرة مدائحه هی الجودة والفصاحة والرصانة التی توجد فی مدائحه. ولو نظرنا إلی شعر المتنبی المتقدم علیه فی العصر، نجده مع ماله من مکانة فی الشعر والأدب، یشتمل علی سقاطات لاتقع من أدانی الشعراء. یقول حنا الفاخوری فی ذلک: «فی مدائح المتنبی معانٍ ساقطة وألفاظ مبتذلة وتعابیر معقدة، وفیها مبالغات بالغة، ولا سیما فی وصف القوة، حیث یعتمد الشاعر إلی تشابیه شاذة، فاسدة الذوق أو قلیلة الاحتفال بحرمة الأشیاء المقدسة.» (حنا الفاخوری، ۱۹۸۷م: ۶۴۱) ولکن هذه المواصفات، لیست موجودة عند شاعرنا الشریف الرضی، فمدائحه فی غایة الدقة والجودة والرصانة.

الشیء المهم الذی لابدّ من الإشارة إلیه هنا بالنسبة لهذین الشاعرین العبقریین، هو تقربهما من الملوک والأمراء، ومدحهما هؤلاء.

فى واقع الأمر إنّ الرضى والمتنبى، عاشا فى فترة استحوذت على معظم الجهود والأفكار والنزعات، طيلة هذه الفترة –أى القرنيين الرابع والخامس – فكرة الدولة وصيانتها وإرسائها على قواعد تكفل لها البقاء، دون أن يوفق أحدٌ منهم.

إذ أفضت الدولة العباسية إلى التفكك والانحلال، على يد الحروب الصليبية فى الغرب، وغزوات المغول والتتر من الشرق، وكان الوهن قد بدأ يدبّ فى عروق الدولة منذ ولّى المتوكل سدّة الخلافة، وانتهى مقتولا بمعونة ابنه ولى العهد الذى لقب «المنتصر» فلم تكن الدولة العباسية إذاً سوى «فكرة» أو «وهم» قائم فى الأذهان، أما الواقع المحسوس، فكان يتمثل تقلّباً فى سرعة الأحداث والإدارة واضطراباً فى الملوك، وقد زاد الأحداث تقلباً والسلوك اضطراباً، تدخّل العناصر الأجنبية فى العراق، وراح الفرس والأتراك، وفروع هؤلاء وأولئک (البويهيون والسلاجقة) يمارسون تأثيراتهم المتضاربة، المتغيرة فى الحياة العامة وتيسير شؤونها، وإدارة مرافقها، مما جعل تلک الحياة فوضى لايملک أحدٌ أن يحول دون الكوارث ووقوعها، على كل مستوى وصعيد.

وهذه الفوضى الشاملة التى عمّت وسادت، أصبحت الهواء الذى يتنفسه الناس، والحقيقة الماثلة التى تؤرق الشاعر والمفكر والعالم فى كل أفقٍ وبلدٍ وأسرة، هذه الأوضاع هى التى عاشها الشاعران الرضى والمتنبى وكانت الدولة (دولة الخلافة) موزعة شرّ توزيع بين البويهيين والعلويين والعباسيين والحمدانيين والفاطميين والسلاجقة والأمويين (الأندلس)، فكان كلا الرجلين يبحثان عن طريق لتكوين دولة أو صيانة الدولة.

وقد وجد المتنبى ضالته فى بنى حمدان وفى شخص سيف الدولة، الأمير العربى بالذات وكان سيف الدولة يجسد أمرين أصيلين فى نظر أبى الطيب: «أولاً: خلق نادر، فى عصرٍ انهارت فيه الأخلاق وانحدرت القيم، وابتعد الناس جميعاً عن الأصالة والجوهر، وصار الانحراف مفخرة وفضيلة. والأصالة هنا خصائص متصلة بالجذور، أى بالتراث الخلقى والحضارى والإنسانى، الذى أبدع تاريخاً من الفعل والعطاء نادر الوجود.

ثانياً: طموح كبير إلى اجتثاث فساد المجتمع من أصوله، وإقامة بناء يكافى الماضى العظيم واسترجاعه بحاضر ومستقبل، لا يكررانه فى جزئياته وحيثياته، وإنما يرتفعان

إلی مستوی عظمته فی الإبداع، ویتخطیانه بإبداع یتناسب مع طموح الأمة إلی البناء الحضاری المتقدم والمتطور.» (الجندی، لاتا: ۶)

ولهذا استحوذ سیف الدولة علی فکر المتنبی وخیاله، فکان عوناً له وحافزاً علی اندفاعه فی تیار الثورة والتغییر. فتقرب منه ومدحه بجیاد قصائده، لأنه مَثَلُهُ الأعلی الذی یمثل ثورة لا تهدأ ورفضاً شاملاً لکل المعاییر والموازین القائمة.

قصائد المدح التی أنشدها المتنبی فی سیف الدولة کانت تحمل فی طیها صدق العاطفة والإخلاص لهذا الأمیر، لأنه کان یری فیه مناه. وکان سیف الدولة أیضاً یغدق علیه العطاء والمال. ولکن فی حقیقة الأمر، لم یکن مدحه فی سیف الدولة من أجل هذا المال وهذه الصلات، بل کان یجد فیه القائد النموذجی والفارس الذی یمثل الثورة العارمة فی کیانه. وقبوله صلاته ما هو إلا صدی للشکر والتقدیر من قبل سیف الدولة، ولیس قبول ذلک دلیل علی أنه کان یتکسب من وراء شعره فی بلاط سیف الدولة. طبعاً لاشک أن مدحه فی هذا الأمیر لا یخلو من نفع، ولکن هذا النفع، لم یکن الغایة کلها، بل کان المال وسیلة لبلوغ المجد والعظمة. ولاشک أن الثورة التی کان یعیشها المتنبی، کانت بحاجة ماسة إلی المال والمال عنده ضروری لایقوم المجد بدونه:

فلا مجدَ فی الدنیا لمن قلّ مالُهُ ولامالَ فی الدنیا لمن قلّ مجدُهُ

(المتنبی، ۱۹۸۶م، ج۱: ۱۲۳)

فهذه الأفکار کانت تخامر أباالطیب فی ثورته وکان یستمر علی الثناء ما استمر العطاء. حتی إذا أغفل عنه ولم یصله، أخذ انقلب وراح یضرب فی البلاد ناقماً علی من مدحه لأنه لم یجازه علی مدحه. لهذا یهجوه هجاءاً مریراً. یقول عصام السیوفی: لعلّ أشدّ الطاعنین فی المتنبی: هو أبوبکر الخوارزمی، الذی اتهم المتنبی بأنه یشکر ثم یشکو، ویمدح ثم یهجو، ویشهد ثم یجرح شهادته، ویعطی ثم یسترجع عطیته. وإنه فضل الأمراء ثم ثلبهم. (السیوفی، ۱۹۸۱م: ۲۰۲)

قد نلاحظ التکسب فی مدح المتنبی أکثر وضوحا، وذلک عندما انتقل إلی بلاط کافور الإخشیدی فی مصر، تلبیةً لما وعده به کافور. لهذا فی بدایة الأمر مدحه بقصائد معدودة،

ولمّا لم يجد عنده مراده، ولم يفِ بوعده هجاه وتركه. فالمتنبى لم يكن مخلصا لكافور عندما مدحه، لهذا الأمر شكك الكثيرون فى صدق أبى الطيب، حتى أن الخوارزمى اتهمه كما أشرنا «بإنه يمدح ثم يهجو» ولكن، كأنما عصام السيوفى قد ردّ على هذا الرأى قائلاً: «وسترى أن المتنبى كان صادقاً شديد الصدق فى موافقه كلها؛ وإنّ الأشكال المعروفة ما كانت أبداً، عائقاً له من تضمينها كل ما كان يعتقده ويؤمن به ويريد قوله. وحتى مديحه الموجه حيث اضطر _ لسبب أو آخر _ إلى بعض المداراة _ بله كلها _ فإنک ترى أنّه قد ضمّن هذا المديح حقيقة مشاعره وما كان فى ذلک كاذباً!! وإن غلط الناس فى تعليل ذلک وفهمه حتى اتهموه بنكران الجميل يمدح ثمّ يهجو.» (السيوفى، ١٩٨١م: ٢٠٢)

وأما الشريف الرضى، عاش نفس الفكرة أيضاً؛ فكرة الدولة والمحافظة عليها وصيانتها.

لأنه مرّ بنفس الأحداث من تفكک الوحدة الإسلامية، وضعف السلطة المركزية فى بغداد، فأخذ يصرخ فى ساعة ضيق وهمّ:

ما مقامى على الهوان وعندى ... مِقــول صــارمٌ وأنــفٌ حمى
ألبس الــذلّ فى ديار الأعادى ... وبمصــر الخليفــة العلــوى

(الشريف الرضى، ١۴٠۶ق، ج٢: ٥٧۶)

«وهذه الأبيات حملت القادر بالله، الخليفة العباسى على معاتبة والد الشريف، مما حدى بصاحبها على إنكارها والتبرؤ منها، ولكنّها كانت قد شاعت وعرفها الكثيرون من معاصريه.» (شرارة، ١٩٩٣م: ١٦)

وتارة من أجل هذه الأمور نراه يتقرب من الخلفاء والملوک ويمدحهم، لالعطاياهم بل لأمور سياسية كان يعيشها الشاعر؛ لأنه عاش ونشأ فى ظل سلطة غريبة، وليس للخليفة العربى منها سوى الاسم والعنوان الأجوف. هذا ما جعل الشريف يئنّ ويشكوا ويتظلّم:

أبغداد ما لى فيک نهلةُ شــارب ... من العيش إلاّ والخطوب مزاجها

يخيــل لــی أنّ الأمالی غياهب ولاتنجلی إلا وعزمی سراجها

(الشريف الرضی، ۱۴۰۶ق، ج۱: ۲۳۴)

ويغلوا به الألم فی بعض الحالات، إلی درجة يتذكر معها المنصور، منشیء بغداد:

لو بعث المنصور نادی: أيا مدينــة التسليم لاتسلمی

قد سكن الفقر بنو هاشم وانتقل الملک إلی الديلم

لو كنت أدری أن عقابهم لذاک، لم أقتل أبا مســلم

ومهما يكن فإنّ مدح الرضی لا يخلو من نفع علی حد تعبير حنا الفاخوری، ولكن ليس بالمعنی العام الذی قد يفهمه البعض من النفع، بل كان نوعاً من المقايضة لمعنی من معانی المجد بين الشعراء وممدوحيهم. فلا الشاعر كان غنياً عن محافل الخلفاء والملوک، لأنهم الطريق الأوحد إلی مجده؛ فبدونهم تُضرب عليه عزلة لايحس به فيها إنسان. يقول نزار قبانی: «كتابة الشعر عذاب جميل، أما قراءته فعذاب أجمل... وحين يقرأ الشاعر شعره فإن مهمته تكون أصعب، لأنّ عليه حينئذٍ أن يبحث عمن يقبلون بمحض إرادتهم واختيارهم أن يحترقوا معه، العمل الشعری لايكتمل إلاّ بالآخرين، وبغير الآخرين تبقی التجربة الشعرية فی جبين الشاعر كالعطر المحبوس فی أحشاء البرعم، لاينتفع به حقل ولاتفرح به رابية...» (قبانی، لاتا: ۱۱۳ و۱۱۴)

فتجربة الشاعر بدون الآخرين هی إذن تجربة ناقصة، مبتورة لاتتم ولاتتكامل إلاّ بالآخر.

وبما أن الخلفاء أنفسهم ليسوا فی غنی عن تردد الشاعر عليهم أو توظفه عندهم، فهم يشعرون بالحاجة إلی هذه الكلمة التی تخلدهم، وتشهر أمرهم، وتنشر ذكرهم بين الناس وتملأ نفوسهم بالغبطة والمتعة. وكانوا بالتالی مستعدين للمكافأة عليها.

إذن، إن كان الرضی أو المتنبی قد قبلا من أجل مدحهما صلة أو عطاء، فليس بالعيب؛ أو الشیء الذی قد يؤخذ عليهما، كما ذهب بعض الدارسين والباحثين، خاصة بما أخذوه علی المتنبی، إنما هو فی الواقع، تجسيد لمواقفهما السياسية.

فی واقع الأمر من حق الشاعر أن يكافأ علی كلماته، وإنّ أشدّ ما يغيظ الفنان

والشاعر، أن لايجد واحدهما صدى استحسان لما يقوله، أو أن يلمس سوء فهم الآخرين وعدم تقديرهم شعره حق قدره، فيغضبه ويثيره ذلک، فيلجأ إلى هجوهم انتقاماً لشرف شعره وكرامة الكلمة والنفس كما فعل المتنبى بعض الأحيان.

مدحتُ قوماً وإن عشنا نظمتُ لهم قصائداً من إناث الخيلِ والحُصُنِ
تحــت اعجاج قوافيهــا مضمّرةٌ إذا تُنوشــدن لم يدخلن فى أذُنِ

(المتنبى، ١٩٨٦م، ج٢: ٣٤٥)

فلاحظ أهمية الكلمة وقد صارت فارساً مقاتلاً عنيداً. ويشبه بذلک ابن الرومى كما أشرنا سالفا.

فالرضى وإن لايخلوا مدحه من غرض نفعى، ولكن مدحه فى مجمله لم يكن تكسبياً. فقد فاق المتنبى فى هذا الأمر، لأنّ المتنبى قدأجهرَ بالطلب، وأذّل نفسه أمام الممدوح، كما جرى ذلک بينه وبين كافور فى مصر، خاصة فى قصيدته المعروفة «كفى بک داءً» كما ذهب بعض النقاد منهم الدكتور كاظم حطيط فى كتابه أعلام وروّاد فى الأدب العربى.

النتيجة

وأخيرا نقول إن مدح الشريف لم يكن للتكسب، وإن لم يخلُ أحياناً من غرض نفعى؛ والشريف قد خالف أسلوب الأقدمين فى الاستهلال بالغزل والوقوف على الديار، وافتتح قصائده بالشكوى من الزمان أو الفخر أو بعض الكلام الوجدانى، وأيضاً أضرب صفحاً فى مدائحه عن المجون، والمبالغات والتعقيد اللغوى أو المعنوى، لهذا جاءت قصائده مَرِنة، فصيحة، لايملها السامع، ولاينفر منها.

وكان الرضى فى مدحه وإن حاول أن يحاكى المتنبى، ولكن كانت له قاعدة مستقلة فى المدح لم تكن للمتنبى. وأما تقربه من ذوى الشأن والسلطان، لم يكن إلا لأمورٍ سياسية، نظراً للفترة التى عاشها الرضى وعاشتها الأمة الإسلامية، وعاشها العلويون بالذات، كما أن الخلفاء والأمراء أنفسهم، كانوا بحاجة إلى الرضى كما كانوا بحاجة من

قبل إلی ابیه الموسوی، لسلطتهم الدینیة والروحیة علی القبائل العربیة، وحمایة طریق الحج وسائر الأمور الأخری.وهذه المیزات فی حدّ ذاتها کافیة لتبین لنا مکانة الرضی بین شعراء المدیح من معاصریه أو غیرهم.

وإذا کان ابن الرومی فی نهایة قصائده المدحیة، یذلل نفسه، فقد کان المتنبی والشریف یتأرجحان بالفخر العظیم والسمات الرفیعة، مما یبرز مکانتهما فی المدح بین سائر شعراء المدیح.

وإذا أردنا أن نعطی المتنبی والشریف مکانتهما فی المدیح، نقول إن المتنبی کان نجماً فی سماء الشعر والشعراء قد ازدان بنوره الواضح، وأما الشریف فکان کوکباً جلا بنوره فی سماء الشعراء، کلما یتصفون به من أوصافٍ تنبیء عن ضعف فی الشخصیة أو المکانة. فهو الکوکب الذی تمتد عروقه من الدوحة المحمدیة الرفعیة، ومن الشجرة التی أصلها ثابت وفرعها فی السماء. ولذلک لم یکن الشعر قد زانه، بل هو الذی قد زان الشعر. وهذه أسمی السمات فیه.

المصادر والمراجع

ابن الرومی. ۱۹۹۴م. *الدیوان*. بیروت: دار الکتب العلمیة.

الأمینی، عبدالحسین أحمد. ۱۳۶۶ش. *الغدیر فی الکتاب والسنة والأدب*. طهران: دار الکتب الإسلامیة.

الأمینی، محمد هادی. ۱۴۰۸ق. *الشریف الرضی*. طهران: مؤسسة نهج البلاغة.

بروکلمان، کارل. لاتا. *تاریخ الأدب العربی*. ترجمة: عبدالحلیم النجار. قم: دار الکتاب الإسلامی.

الجندی، إنعام. لاتا. *المتنبی والثورة*. بیروت: دار الفکر اللبنانی.

حطیط، کاظم. ۱۹۸۱م. *أعلام ورّواد فی الأدب العربی*. بیروت: الشرکة العالمیة للکتاب.

السیوفی، عصام. ۱۹۸۱م. *العوامل السیاسیة فی شعر أبی الطیب المتنبی*. بیروت: دار الفکر اللبنانی.

شرارة، عبداللطیف. ۱۹۹۳م. *شعراؤنا القدامی؛ الشریف الرضی، دراسة ومختارات*. بیروت: الشرکة العالمیة للکتاب.

الشریف الرضی. ۱۴۰۶ق. *الدیوان*. طهران: وزارة الإرشاد.

الفاخوری، حنا. ۱۹۸۷م. *تاریخ الأدب العربی*. بیروت: المکتبة البولسیة.

قبانى، نزار. لاتا. *الشعر قنديل أخضر*. بيروت: منشورات نزار قبانى.
مبارک، زکی. ۱۹۸۸م. *عبقرية الشريف الرضى*. بيروت: دار الجيل.
المتنبى، أبوالطيب. ۱۹۸۶م. *الديوان*. شرح: البرقوقى. بيروت: دار الكتاب العربى.